الفصل الأول

الأبعاد الفكرية لظاهرة العولمة

الفصل الأول
الأبعاد الفكرية لظاهرة العولمة

المبحث الأول
مدخل تاريخي

إن المسيرة التي قطعتها البشرية بدءاً من عصور الصيد الأولى، ثم عصور الزراعة فعصور الصناعة، وحتى عصر ما فوق التصنيع الحالي (عصر المعلومات)، تبدو مسيرة جديرة بالتأمل، حيث تبدو الرغبة في الإحاطة بأبعاد العالم رغبة بشرية مستمرة طوال مراحل تلك المسيرة.

فقد كان العالم -على مر التاريخ- يتشكل في الرؤى الإنسانية طبقاً لنسبية كل من: المدى الأرضي المحيط، والأفق السماوي المنظور. حيث كان ذلك المدى وذاك الأفق هما البُعدان اللذان استطاعت البشرية الوصول إليهما لتعريف حدود ذلك العالم وتخومه وأطرافه ومنتهاه.

ففي عصور الصيد الأولي.. كان خط الأفق أولاً (الذي يوضح اتصال الأرض بالسماء)، والجبال الشامخة ثانياً، ثم البحار والمحيطات

اللانهائية ثالثاً (بحور الظلمات)، هم الذين يمثلون جميعاً الحدود الطبيعية لنهاية ذلك العالم. وكان الترحل الدائم - وراء المناخ المناسب والغذاء الموسمي - يقطع الاستقرار الذي قد يولِّد لدى الإنسان رؤية تراكمية مركبة للحدود التي يتطلع إليها لبسط النفوذ أو السلطة. فقد كان التنقل ضد حيازة الأرض، وبالتالي كانت الأرض حينئذٍ مسرحاً للأحداث وليست شريكاً في هذه الأحداث.

ومع عصور الزراعة.. وبدء الاستقرار الإنساني، وارتباط الإنسان بالأرض المزروعة، وظهور فكرة الحيازة لرقعة أرض معينة. بدأت الأرض تمثل النواة لرؤية توسعية لدى الإنسان لامتلاك المزيد من هذه الأرض، إما بالامتداد الطبيعي دون منازعة، أو بالصراع والقتال لحيازة المزيد منها. وحينئذٍ أصبح سطح الأرض بثرواته الظاهرية هو المُحرك للأحداث والنزاعات وهو الدافع لها. وهو المُحفز للتوق الإنساني إلى التملك والانتشار والامتداد. وبهذا أصبح سطح الأرض شريكاً في الأحداث.

ومع الثورة الصناعية.. دخل باطن الأرض بثرواته المعدنية المخبوءة حيز الصراع. وأصبحت قيمة الأرض تقاس بمواردها الباطنية أيضاً وليست الظاهرية فقط. وبالتالي اتسع تعريف ما هو مدى للنزاع لدى الإنسان. بحيث لم تصبح الأراضي المزروعة فقط هي محور هذا النزاع، وإنما كل الأراضي سواء أكانت ذات الثروات المنظورة أو المخبوءة. وبهذا أصبح باطن الأرض شريكاً في الأحداث.

ومع عصر المعلومات الحالي.. امتد حيز الأفق الإنساني إلى ما فوق القشرة الأرضية من فضاء محيط يتضمن: طبقات الغلاف الجوي، ونطاق الجاذبية الأرضية، ومدارات الأقمار الصناعية، ونطاق ترددات الطيف الكهرومغناطيسي الحاملة للاتصالات اللاسلكية.

لقد كانت رقعة الأرض المحدودة هي مسرح الأحداث بداية، ثم أصبح سطح الأرض ومن بعده باطنها هما المحركان للأحداث لاحقاً، والآن أصبحت الأرض كلها - بسطحها وباطنها ونطاق جاذبيتها - هي موضوع الأحداث. وتحققت بذلك الرغبة البشرية القديمة في الإحاطة بأبعاد العالم. بحيث أصبحت تلك الكرة المعلقة في السماء في مدار حول الشمس هي النطاق المعلوم الأبعاد لتحركات الإنسان وخططه وصراعاته وطموحاته.

وطالما أصبح (العالم) موضوعاً لكافة الأنشطة الإنسانية، فهذه إذن هي الرؤية الإنسانية المكتملة لوحدة المصير الإنساني على هذا الكوكب، والخطوة العالمية المتممة لما سبقها من خطوات موغلة في القدم وعدم الاكتمال. فالرغبة الإنسانية المستمرة في الإحاطة بأبعاد العالم، والتي تعد - بعبارة مختصرة - ملمحاً إنسانياً تاريخياً للتوجه نحو ما يُطلق عليه اليوم «العولمة»، تلك الرغبة "هي التي نقلت الإنسان عند نهايات القرن العشرين من استخداماته للأرض فقط (مع تطلعاته للسماء)، إلى استخداماته للأرض (مع اختراقه للفضاء)"[1].

وبهذا المعنى تصبح العولمة "ظاهرة متميزة ولحظة جديدة في التاريخ البشري. وهي في الأساس وليدة ظروف ومعطيات تاريخية وحضارية معاصرة. ورغم أنها لم تبرز فجأة ومن دون مقدمات سابقة. إلا أنه لا يمكن استيعاب العولمة إلا كفصل جديد من فصول التاريخ له سماته وخصائصه المختلفة كل الاختلاف عن الفصول الأخرى"[٢]. وهذا يوضح بأن "الإنسانية تواجه الآن قفزة كمية نحو الأمام "[٣]، إذ "إن عملية التغير التكنولوجي أطردت زمناً طويلاً جداً منذ أن صارع الرجال والنساء الأوائل من أجل الاستفادة من بيئاتهم، واكتسبوا المزيد والمزيد من قوة الدفع على مدي آلاف السنين. ولكن قوة الدفع هذه تسارعت خلال القرون الثلاثة الأخيرة على نحو غير مسبوق. وترتبت على هذا تحولات بعيدة في ظروف الحياة الاجتماعية والإنسانية بعامة "[٤].

ففي حين "سادت الزراعة المجتمعات البشرية لمدة عشرة آلاف سنة. واحتاجت هذه المجتمعات إلى قرن واحد أو قرنين لتحقق تفوق الصناعة.. الآن تنفتح أمام المجتمعات البشرية أبواب عصر جديد هو عصر ما فوق التصنيع"[٥]. عصر تتسارع معدلات التطور فيه بشكل لم تعرفه الإنسانية من قبل.. وبذلك فإن العولمة تفرض طابعها على العالم الذي نعيش فيه، باعتبارها الأسلوب الأمثل للتعامل مع العالم المحيط بنظرة شاملة تستلهم كافة المنجزات البشرية. وهذا يتضح من أن "استخدام أي أدوات تحليلية ذات طبيعة موضوعية سوف يُظهر

بوضوح أن العولمة عملية مستمرة وتيار متدفق يمكن ملاحظة تأثيره، ويمكن قياس هذا التأثير سواء بشكل أو طريقة كمية أو بشكل وطريقة نوعية وكيفية في مجالات وجوانب متعددة "[٦].

فلقد أصبح "مشهد العالم يتغير مع الثورة الإلكترونية. إذ ننتقل من الإنتاج الثقيل إلى الإنتاج الناعم، ومن العمل اليدوي إلى عمال المعرفة، ومن وسائل النقل التقليدية إلى الوسائل المتعددة، ومن الكلمة المطبوعة إلى الصورة المرئية... باختصار: إننا ننتقل من زمن الجسم والورق إلى زمن الرقم والضوء"[٧].

ولعل "أولى بشائر الثورة التكنولوجية والمعلوماتية أن طريق التنمية لم يعد يقتضي اجتياز المراحل التاريخية نفسها التي سلكها الغرب؛ أي من المجتمع الزراعي إلى الصناعي فالمعلوماتي، حيث إن المعلوماتية توفر طريقاً مختصراً للحاق بالتطوير والسيطرة على المستقبل، وتعد بتحطيم هذه الحلقة، وتمنح خياراً جديداً لمجابهة تحديات التنمية"[٨].

فلقد "أفرزت متغيرات السنين الأخيرة للقرن العشرين مصدراً جديداً سوف تكون له الغلبة في قرننا (الحالي) الحادي العشرين، ألا وهو المعرفة وامتلاك المعلومة"[٩].

"فالمعرفة البشرية صارت تتضاعف مرة كل عشر سنوات بحيث خلَّف العقد الماضي معرفة علمية أكثر مما خلفه التاريخ البشري بأكمله.

بينما تتضاعف قدرة الكمبيوتر كل ثمانية عشر شهراً. وتتضاعف قدرة الإنترنت مرة كل عام. وتتضاعف سلاسل الـ DNA التي يمكن تحليلها مرة كل عامين"[١٠].

إن العولمة بهذا الملمح "سلسلة معقدة من العمليات تكتسب قوة دفعها من خليط من المؤثرات السياسية والاقتصادية، إنها تغير مظاهر الحياة اليومية وبصفة خاصة في الدول المتقدمة. وفي الوقت نفسه فهي تخلق نظماً وقوى عبر قومية جديدة. إنها أكثر من مجرد خلفية أو انعكاسات لسياسات معاصرة. وإذا ما نظرنا إليها نظرة كلية، فالعولمة آخذة في تغيير مؤسسات المجتمعات التي نعيش فيها "[١١].

وذلك من خلال "ثلاث ثورات متزامنة ومترابطة تحدث في الوقت الراهن. الثورة السياسية وتعني الانتقال من الشمولية والسلطوية إلى الديمقراطية والتعددية واحترام حقوق الإنسان. والثورة القيمية وتعني الانتقال من القيم المادية إلى القيم ما بعد المادية. والثورة المعرفية وتتركز في الانتقال من الحداثة إلى ما بعد الحداثة"[١٢].

وبالتالي.. فنحن "نشهد اليوم التنصيب السريع للنظم المعقدة التي سوف تصبح بمثابة الأسس التكنولوجية والتجارية للبنية التحتية لبيئة المعلومات الكونية. وهذا الفضاء الاتصالي التفاعلي الجديد سوف يُوظَّف بلا شك كأداة قوية لخدمة الاقتصاد. ولكنه سوف يكون أيضاً بمثابة مركز للتغيرات الجذرية والبعيدة في مجتمعاتنا "[١٣].

وكما يقرر المفكر الأمريكي «آلفين توفلر» فإن "حضارة الموجه الثالثة (حضارة عصر ما بعد الصناعة) لن تستطيع أن تعمل بهيكلية الموجه الثانية (عصر الصناعة). فكما لم يقدر الثوريون الذين أوجدوا العصر الصناعي على ممارسة سلطاتهم عن طريق نظام الإقطاعية المتخلف. كذلك تواجه الحضارة الجديدة الحاجة لابتكار أدوات سياسية حديثة. وهذه هي الرسالة السياسية للموجة الثالثة "[١٤].

ولقد قدم «منتدى كوبنهاجن للتقدم الاجتماعي» المنعقد عام ١٩٩٧ تفسيراً هاماً للتفرقة بين العولمة كمرحلة من مراحل التطور التاريخي الإنساني، والعولمة بوصفها مشروعاً سياسياً يقود الاقتصاد العالمي في مرحلة محددة. "وأطلق المؤتمر على التوجه الأول «الاتجاه».. والذي يعني التقدم نحو تضييق المسافات المادية بين الأفراد وتنمية الاعتماد المتبادل بين الدول. بما يمثل تحركاً أساسياً لتطبيق الشروط البشرية الكافلة لنمو العلم والتكنولوجيا. ويمثل اتجاهاً عاماً للتغير يمكنه الإبحار بواسطة القرار الإنساني. أما التوجه الثاني فقد أطلق عليه المؤتمر «المشروع».. وهو مشروع العولمة الرأسمالية (أو الرأسمالية الكونية) والتي تتمثل في تطبيق أفكار ومؤسسات اقتصاد السوق على العالم ككل. والذي تبنته بنشاط الولايات المتحدة الأمريكية وعدد آخر من الحكومات من دول كبيرة وصغيرة، بواسطة أكثر المنظمات العالمية قوة، والصفوة المالية والاقتصادية في العالم. ووفقاً لما نص عليه التقرير:

«فإن التمييز بين التوجهين يبدو هاماً وذلك لإنشاء فضاء للتفكير والفعل الإنساني. إذ إنه بدون ذلك ستبدو نهاية التاريخ مصاحبة لنهاية السياسة المتمثلة في الاقتصار على قطب واحد وشكل واحد للمنظمات السياسية التي يقتصر دورها على خدمة مصالح الرأسمالية الكونية، وتترك للحكومات غرفة صغيرة للمناورة»"[١٥].

ولكن "إذا كان صحيحاً إن العولمة تكشف عن ذروة من ذرا تطور النظام الرأسمالي العالمي. فثمة اعتقادات أن التاريخ سيتجاوز هذه اللحظة وسيكشف في المستقبل المنظور أن العولمة – بغض النظر عن نشأتها الرأسمالية – ستتجاوز شروط نشأتها لتصبح عملية عالمية واسعة المدى. ستنقل الإنسانية كلها – على اختلاف ثراء وفقر الأمم – إلى آفاق عليا من التطور الفكري والعلمي والتكنولوجي والسياسي والاجتماعي. وبعبارة أخرى ستحدث آثار إيجابية لم تكن متصورة لدى من هندسوا عملية العولمة. بل وستتجاوز الآثار مخططاتهم التي كانت تهدف للهيمنة والسيطرة على النظام العالمي. وسيثبت التاريخ أنه لن يتاح لدولة واحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو حتى لمجموعة الدول الكبرى، أن تهيمن هيمنة كاملة على العالم اقتصادياً وسياسياً وتكنولوجيا وعلمياً، وإلا حكمنا على شعوب الأرض جميعاً بالعقم وعدم الفاعلية "[١٦].

إن الاقتراب التاريخي من ظاهرة العولمة ، يوضح بأن الظاهرة رغم كونها حديثة بمعايير ملاحظتها ، إلا أنها موغلة في القدم بمعايير التراكم الزمني الذي تحتاج إليه بعض الظواهر لكي تتجسم آثارها. وبالتالي ربما كانت العولمة كامنة بخطوات الماضي البطيئة ، ولكنها بارزة – الآن – بقفزات الحاضر المتسعة .

• • • • •

المبحث الثاني
مدخل معرفي

" أشار «قاموس أكسفورد للكلمات الإنجليزية الجديدة» لمفهوم العولمة للمرة الأولي عام ١٩٩١ واصفاً إياه أنه من الكلمات الجديدة التي برزت خلال التسعينات "[١٧].

" ومفهوم العولمة – من الوجهة النظرية البحت – قد يعني: جعل الشيء على مستوى عالمي. أي نقله من حيز «المحدود» إلى آفاق «اللا محدود» أي العالم بأسره. ومن ثم يصبح إطار الحركة والتعامل والتفاعل والتبادل على اختلاف صوره وأبعاده السياسية والاقتصادية والثقافية والتقنية.. وغيرها، متجاوزاً الحدود الجغرافية المعروفة للدول. لكن مفهوم (العولمة) لا يقتصر على هذا المعنى وحده، بل ينصرف كذلك – حسب ما تشير الأدبيات الأمريكية – إلى ما يعني: تعميم الشيء وتوسيع دائرته "[١٨].

"ويجري العرف السائد في الأدبيات الغربية على تعريف العولمة بأنها.. زيادة درجة الارتباط المتبادل بين المجتمعات الإنسانية من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات"[١٩]. وبالتالي تعني العولمة " جملة عمليات

تاريخية متداخلة تتجسد في تحريك المعلومات والأفكار والأموال والأشياء وحتى الأشخاص بصورة لا سابق لها من السهولة والآنية والشمولية والديمومة. إنها قفزة حضارية تتمثل في تعميم التبادلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على نحو يجعل العالم واحداً أكثر من أي يوم مضى من حيث كونه سوقاً للتبادل أو مجالاً للتداول أو أفقاً للتواصل "[٢٠].

"وإذا كان علم الاقتصاد يُعد أسبق فروع العلم الاجتماعي في الكشف عن مقومات وخصائص ظاهرة العولمة، ورصد تأثيراتها الآنية والمستقبلية على شمال العالم وجنوبه. إلا أن الدوائر الأكاديمية في مجال علم الاجتماع الثقافي والإعلامي لم تتوصل بعد إلى تحديد إطار منهجي ذي مضمون معرفي واضح يمكن الاستناد إليه كإطار مرجعي عند استخدام مصطلح العولمة "[٢١].

"ومن الطبيعي أن تختلف التعاريف لمفهوم العولمة باختلاف أبعادها وتجلياتها ومؤشراتها على أرض الواقع. ويتضح من خلال رصد الأدبيات وجود أربع مجموعات كبرى من التعاريف، هي:

أ - مجموعة تُركّز على البعد الاقتصادي للعولمة، وهو البُعد الذي يحتوي على مؤشرات واتجاهات ومؤسسات اقتصادية عالمية جديدة غير معهودة في السابق وتشكل في مجملها العولمة الاقتصادية.

ب – مجموعة تركز على البعد الثقافي، وهو البعد الذي يشير إلى بروز الثقافة كسلعة عالمية تُسَّوق كأي سلعة تجارية أخري؛ ومن ثم بروز وعي وإدراك ومفاهيم وقناعات ورموز ووسائط ووسائل ثقافية عالمية الطابع.

جـ – مجموعة تركز على البُعد السياسي، الذي يشير إلى قضايا سياسية عالمية جديدة مرتبطة أشد الارتباط بالحالة الأحادية (القطب الواحد) السائدة حالياً.

د – مجموعة تركز على البعد الاجتماعي، الذي يلاحظ بروز المجتمع المدني العالمي وبروز قضايا إنسانية مشتركة تُشكِّل في مجملها العولمة الاجتماعية "[٢٢].

ومن هذا المنطلق.. هناك عدة مستويات للتعامل مع العولمة. فثمة مستوى للتعامل مع العولمة باعتبارها "(أيدلوجية) أو إطار فكري يقوم على فكرة انتصار الحضارة الغربية، ويدَّعي تدشين مرحلة جديدة في التاريخ البشري أو التأسيس لحضارة إنسانية جديدة. ويستند في هذه الدعاوى على مجموعة من الأطر الأيدلوجية كالليبرالية الجديدة، أو اتجاه ما بعد الحداثة، أو مرحلة ما بعد التنمية، أو ما بعد الإمبريالية. وتسنده نظريات تفسيرية مثل نظرية التحديث والتلاقي، ونظرية عبر القومية، ونظرية القرية العالمية "[٢٣].

ولكن التحليل المتعمق يوضح أنه لا يمكن "اعتبار العولمة أيدلوجية معينة أو مذهباً سياسياً أو معتقداً فكرياً، إذ تخبرنا تجلياتها النظرية وتطبيقاتها المتنوعة أنها ظاهرة تاريخية كبرى. كما هو الحال بالنسبة لظواهر تاريخية عديدة: كالاستكشافات الجغرافية أو الثورات التكنولوجية... لها أنماط متعددة الوجوه ومناهج متنوعة الحقول"[٢٤]. "فالأيدلوجيا تتعارض مع العولمة كظاهرة جديدة. والعولمة في الحقيقة نظام عالمي جديد له أدواته ووسائله وعناصره وميكانزماته، ومنجزاتها حصيلة تاريخية لعصر تنوعت فيه تلك التطورات التي ازدحم بها التاريخ الحديث للإنسان"[٢٥].

وثمة مستوى ثان للتعامل مع العولمة "(كظاهرة).. بمعنى مجموعة من الإجراءات والسياسات والممارسات المقصودة والصادرة عن القوى الكبرى في العالم (خصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية) والتي تحاول بشكل واع ومتعمد تحديد مضمون العولمة وفرض شروطها على كل التجمعات وبشكل يخدم مصالحها؛ ومن ثم فقد أصبحت العولمة في هذا المستوى تعني التدخل في الشئون الداخلية من الناحية السياسية، والتحكم في عمليات الإصلاح الاقتصادي من الناحية الاقتصادية، والاختراق الإعلامي والثقافي من الناحية الثقافية "[٢٦].

ولعل الأسباب التي تجعل هذا الاتجاه يجد صداه لدى بعض الأوساط الفكرية، تتمثل في أن "العولمة -كظاهرة مازالت غير واضحة المعالم

لا من حيث تحديد المفهوم (Conceptually) ولا من حيث اختبارها على أرض الواقع (Empirically) – كل ما يمكن أن يُقال عنها أنها تُعبِّر عن ديناميكية جديدة تبرز داخل دائرة العلاقات الدولية، من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة والسرعة في عملية انتشار المعلومات والمكتسبات العلمية والتقنية. وعلى ما يبدو، ففي إطار هذه الديناميكية (الجديدة) يتزايد دور العامل الخارجي في تحديد مصير الأطراف الوطنية المكوِّنة لهذه الدائرة المندمجة؛ وبالتالي لتوابعها (أو: هوامشها)"[٢٧].

ومن هنا، فإن تزايد دور العامل الخارجي لا يجب تفسيره كنوع من الهيمنة.. والتحليل العلمي يثبت أن "هيمنة الولايات المتحدة لن تستمر بسبب مشاكلها الداخلية من ناحية، ولتوقع ظهور قوى جديدة من ناحية أخرى. وسيبقي (إذن) للولايات المتحدة مركز «مهم» لا «مهيمن»"[٢٨].

أما المستوى الثالث للتعامل مع العولمة، فهو الذي يتعامل معها باعتبارها " (عملية).. بمعني أنها مرحلة تاريخية أو بمثابة تطور نوعي جديد في التاريخ الإنساني. وبالتالي فهي محصلة تطور تاريخي تراكمي له جذوره التي تحدَّث عنها الكثيرون والتي حاول البعض وضعها في شكل حلقات متتالية. وهي بذلك تجسيد لمجموعة من التطورات العلمية والاقتصادية التي تجعل منها امتداداً لاتجاهات سبق أن تحددت. وهي بهذا المعنى تخرج عن إمكانية التحكم فيها. بحيث تبدو مستقلة تماماً؛ كقوى علمية وتكنولوجية واقتصادية؛ عن

إرادة الدول الكبرى، نتيجة ظهور قوى جديدة تتحكم في الاتجاهات العالمية (الشركات الدولية، المؤسسات المالية الدولية، أسواق المال العالمية، مافيات العنف والجريمة..) وظهور شبكات من التفاعل لا تعرف الحدود ولا تعترف بسيادة الدولة. وظهور أنساق عالمية جديدة (نسق سياسي عالمي، نسق اقتصادي عالمي، وآخر إعلامي وكذلك عسكري) ثم تعني ظهور قضايا عالمية جديدة"[٢٩].

.. ولكن أياً كانت مستويات التعامل مع العولمة التي يؤدي تعددها إلى التباس المفهوم، إلا أنه من المهم الإشارة إلى أن "العولمة في مفهومها الضمني ومدلولها الاصطلاحي ليست هي العالمية بحد ذاتها إذ لا يمكننا البتة أن نقرنها مثلاً بعالمية الأديان* -أي دين- كالإسلام الذي جاء إلى العالم كله. أو بعالمية بعض المذاهب السياسية والاقتصادية مثل (الاشتراكية) التي جاءت لتعلن على لسان كارل ماركس «يا عمال العالم اتحدوا». وذلك لأن «العالمية» مصطلحاً ومضموناً ارتبطت بالأرض والإنسان، أما « العولمة » مصطلحاً ومضموناً فقد ارتبطت بالكونية وأنظمة الإنسان المتنوعة سواء مع الأرض أم في الفضاء"[٣٠].

---

* انظر: محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني. ص ٤٤. حيث يقرر ما نصه: « توصل الأنثروبولوجيون الذين حاولوا دراسة المجتمعات البدائية في أفريقيا وآسيا إلي ملاحظتين أساسيتين هما: أولاً، وجود شكل من أشكال الدين في كل مكان، ثانياً، التنوع المذهل في أشكال السلوك الديني. بمعنى آخر، لوحظ الدين على أنه منتشر ومتنوع في كل مكان ».

ومن نفس المنطلق، فإن "العولمة ليست هي «الدولية». لأنها ليست مجرد علاقات وطيدة بين الأمم. ولكنها تتعلق بعمليات انبثاق المجتمع المدني العالمي والذي يتخلل حدود الأمم. فالدول التي تواجه مخاطر وأخطاراً بدلاً من أعداء (مثل المخاطر البيئية العالمية كثقب الأوزون والاحتباس الحراري ونضوب البترول.. إلخ) لا تحتاج إلى رؤية العالم في مصطلحات النظرية الواقعية، حيث تصبح الواقعية مصطلحاً خطأ؛ وذلك لأن الاعتقادات التي تشير إليها قديمة ومهجورة"[٣١].

ولعل كل هذا التباين في المستويات المعرفية المتعددة للتعامل مع العولمة، يوضح أن العولمة "شأنها شأن كل التحديات المصيرية -تجمع بين التهديدات والفرص- وهي بهذا ليست كلها شراً بالضرورة. وعلينا أن نمعن النظر.. فيما يمكن أن تأتي به من فرص ومزايا"[٣٢].

إذ إنه "لا يمكن اختزال العولمة في المخاطر دون الفرص، أو في الفرص دون المخاطر. ولا يمكن تجاهل إيجابيات العولمة الواضحة كل الوضوح. كما لا يمكن استبعاد سلبياتها البارزة كل البروز. كذلك لا يمكن التغافل عن المستجدات الحياتية والفكرية المعاصرة، والاعتقاد أن العالم لم يتغير وبالتالي الاستمرار بالقوالب الحياتية والفكرية السابقة نفسها، والتي ربما لا تناسب الفصل الجديد من التاريخ، وربما توحي بالمواجهة وافتعال المعارك غير الضرورية مع العولمة. لذا يصبح من المهم تشخيص العولمة تشخيصاً متوازناً بكل ما لها وما عليها، ودون اتخاذ مواقف عاطفية وعقائدية مسبقة، أو إطلاق أحكام قيمية وأخلاقية

جاهزة تعبِّر عن افتراضات وقناعات هي أقرب إلى الأوهام البعيدة كل البعد عن حقيقة ما يجري في العالم من تحولات حضارية عميقة. وبالتالي فالمطلوب فهم العولمة وليس افتعال المعارك معها "[٣٣].

حيث إن هناك اتجاهات فكرية معينة تتعامل مع العولمة باعتبارها مؤامرة، وذلك مثلما " توصف العولمة من قبل الاشتراكيين والراديكاليين بأنها خدعة إمبريالية من صنع الولايات المتحدة الأمريكية للتدخل في الشئون الداخلية للحصون الاشتراكية أو القلاع القومية أو القيم الوطنية. أو كما توصف من قبل الأصوليين والوطنيين.. والتراثيين والخصوصيين بأنها إمبريالية ثقافية تسعي إلى تهجين العالم وتجريده من خصوصياته، وفرض النموذج الثقافي الغربي على شعوب الأرض قاطبة. وبالتالي فالكونية المستقبلية التي تسعي العولمة إليها ما هي -في نظرهم- إلا كونية استعمارية كاذبة. لا تحترم الإنسان ولا تحافظ على جذوره وحضارته وموارده وتجاربه وثقافاته"[٣٤]. وبالتالي يصبح الانعزال عن العولمة هو النتيجة الأكيدة لمثل هذا الطرح.

ولا شك أن "الانسلاخ الكامل والعزلة الكاملة عن عمليات العولمة الجارية -على نحو ما يشير « سمير أمين » وبعض منظري مدرسة التبعية في السابق- أصبح نوعاً من (الفانتازيا). يقود أحياناً إلى «التخلف المستقل» وليس إلى «التنمية المستقلة»"[٣٥].

وذلك باعتبار أن "التناقض الذي تفرزه ظاهرة العولمة من جهة وسرعة التحولات من جهة أخري، تجعل النماذج الفكرية المدرسية القديمة عاجزة عن فهمها وتحليلها والتنظير لها. وبالتالي فلا مناص

من تجديد المناهج وتغيير أساليب المقاربات ونبذ عقلية «الفكر الواحد» و «الفكر الواحد المضاد». والإفادة من الجوانب الإيجابية مثل: كونية مبادئ حقوق الإنسان، والاعتراف بالآخر. واحترام الخصوصيات الثقافية، والتصدي للنظم الاستبدادية. ومقاومة الجوانب السلبية مثل: محاولات السيطرة وإملاء الشروط على الشعوب الضعيفة، وتحالف سماسرة أممية رأس المال مع منظمات المافيا وتجار المخدرات. ولا يمكن أن تنجح هذه المقاومة إلا من خلال العمل السياسي والنضال الاجتماعي"[٣٦].

إن الصياغة المعرفية لمصطلح العولمة؛ توضح بأنه حمال أوجه، لكونه يتماهى مع توصيف المتلقي للظاهرة ، وليس مع تأثيرات الظاهرة على أرض الواقع. ورغم أن أبسط صياغة معرفية لمصطلح العولمة ، تشير إلى توسيع حركة كل الأنشطة لكي تمتد من المستوى المحلي إلى المستوى العالمي ، إلا أن ذلك التمدد يتم إدراكه وفقاً للطموحات أو الهواجس التي تتعدد بتعدد المصالح ، الأمر الذي ينعكس على المصطلح فيخلق له ظلالاً لا متناهية؛ تتباين باختلاف زوايا النظر إليه .

• • • • •

المبحث الثالث

مدخل فلسفي

يمثل قصور المفاهيم الفكرية عن ملاحقة المنجزات المادية والتكنولوجية؛ معلماً من معالم العصر الراهن. حيث أدى التطور المادي التكنولوجي الهائل والمتسارع إلى الكشف عن فجوات في هياكل التطور الفكري للبشرية. ففي حين كان السبق للتطور الفكري على التطور المادي التكنولوجي في العصور السابقة. إلا أن العصر الحالي – عصر المعلومات والمعرفة – تجاوز فيه التطور المادي التكنولوجي الكثير من الأطر الفكرية التي لم تستطع تطوير مضامينها لتتلاءم مع الأوضاع الراهنة، أو على الأقل تتمكن من تفسيرها.

من هذا المنطلق تبدو العولمة كظاهرة تاريخية كبرى بمثابة تجاوز للمشروع الفكري «للحداثة» و «ما بعد الحداثة» معاً، وإن كانت بلا شك هي " أقرب إلى مرحلة ما بعد الحداثة... التي برزت في السبعينات والثمانينات، وكان هدفها محاولة استيعاب اللحظة الحضارية والفكرية التي تم تأسيسها منذ عصر التنوير ومنذ بروز الحضارة الغربية، والعمل على تجاوزها من خلال إجراء مراجعة نقدية لسجل هذه الحضارة، وإسقاط مسلماتها والتأسيس لحضارة جديدة ووعي حضاري جديد، أساسه التنوع الحضاري ونسبية المعرفة واحترام الفروقات ورفض التأطير"[٣٧].

وكانت «الحداثة» قد أسست من قبل "لمشروع متكامل يتضمن رؤية متكاملة للعالم تبنتها الطبقات الرأسمالية الصاعدة. وهو يقوم على عدة أركان: الفردية، والعقلانية، والاعتماد على العلم والتكنولوجيا، وتبني نظرة خطية عن التقدم الإنساني"[٣٨].

ولكن أنصار «ما بعد الحداثة» رأوا أن كافة هذه الأركان لا تصمد أمام النقد، فالفردية "أدت إلى ضياع الفرد في غمار مجتمعات شمولية على النسق السوفيتي أو مجتمعات جماهيرية على النسق الأمريكي. والعقلانية العلمية أدت -حين تجاهلت الأبعاد الإنسانية- إلى سلبيات لا حدود لها. أما العلم الذي أُسيء استغلاله والتكنولوجيا التي انطلقت في كل اتجاه بغير قيم أخلاقية تحكمها، فقد أدت إلى اضطرابات سياسية واجتماعية وثقافية لا حدود لها. ويبقى وهم التقدم الإنساني الصاعد للتاريخ، والذي بددته بغير شك حروب ومآسي وكوارث القرن العشرين"[٣٩].

ويوضح الفيلسوف الفرنسي «فرانسوا ليوتار» في كتابه «الوضع ما بعد الحداثي» أن "البشرية مرت بمراحل ثلاث.. الأولى: المرحلة القبائلية؛ وكانت المعرفة فيها تنبع من الخرافة والأسطورة، والنقل من السلف إلى الخلف. ثم المرحلة الثانية: حالة المجتمع الحداثي الذي يستمد مشروعية معارفه من الأيدلوجيات السياسية والنظريات الفلسفية التي تقوم الدولة بفرضها بواسطة المؤسسات

التعليمية والإعلامية تبريراً لسلطتها. أما المرحلة الثالثة: ما بعد الحداثة Post Modernism فهي مرحلة العلم الذي لا غش فيه، إذ يستمد العلم مشروعيته من المعلومات المتسارعة المتدفقة عبر أجهزة الكمبيوتر وآليات الأنظمة السوبر تكنولوجي. وتلك المشروعية لا يتحكم فيها أي شيء على الإطلاق. إنما هي متحررة من كل قيد بمنهاج براجماتي «نفعي» متمرد على السلطة وعلي الأيدلوجيات في آن واحد. وبالتالي لم تجد التكنولوجيا كبير عناء في إسقاط الأيدلوجيات، بل وإسقاط مشروعية المعرفة التقليدية"[٤٠].

هذه المراحل الثلاث " تؤلف ما يمكن تسميته ثالوث القدامة والحداثة وما بعد الحداثه. أو بصيغة أحدث: ثالوث الأصولية والعالمية والعولمة "[٤١].

ولهذا يؤكد ليوتار أنه إذا كانت "مجتمعاتنا تتجه صوب عصر ما بعد الصناعة Post-industrial age فإن ثقافتنا تتجه صوب عصر ما بعد الحداثة Post-modern age "[٤٢].

لقد كانت الحداثة -إذن- هي فلسفة «العالمية»، بينما تتقدم «ما بعد الحداثة» لتصير هي فلسفة «العولمة». "فالعالمية هي عصر المطلقات، المطلق العلمي الذي أسس لصياغة المطلقات الاجتماعية، والحتميات العلمية التي أسست لحتميات التغير الاجتماعي بواسطة الصراع أو الثورة.... وبالتالي كان جوهر التغير الذي حصل من العالمية إلى

العولمة، تغيُّراً من المطلقات إلى الممكنات أو الاحتمالات المفتوحة... فالانتقال من نيوتن إلى أينشتاين، ومن الحتمية إلى النسبية. والانتقال من الإقليدية إلى اللا إقليدية.. لابد من أن تواكبه نظرات أخرى للحياة ورؤى للعالم مختلفة. ففي عالم يحمل إمكانات كثيرة لا وجود لصراع ذي شكل واحد أو اتجاه واحد أو هدف واحد. وهذا يحيل المجتمع إلى أفراد متنافسين، مختلفين، ومتفقين. فتنتفي قدرة الأفكار على التأثير وقدرة النظريات الكلية على تقديم البدائل"[٤٣].

وبالتالي فإن "الحتمية كما سقطت في العلم، سقطت أيضاً في مجال الممارسة الاجتماعية والفعل التاريخي. فليس هناك حتميات تقود شعوباً بأكملها إلى مصير مظلم. لأن معنى ذلك -كما تقرر فلسفة ما بعد الحداثة- الإلغاء المطلق للإرادة الإنسانية، وإغلاق أبواب الأمل أمام التقدم"[٤٤].

إن "ما بعد الحداثة تدعو إلى الأنساق الفكرية المفتوحة، وتكره التعميمات، وتركز على الجزئي، وتهتم بالمجتمعات المحلية، وتغير طريقة صنع القرار، وتفتح الباب لمشاركات إنسانية أوسع"[٤٥].

وهذا يوضح "أن الحضارة الجديدة تتحدي بعمقها الثوري كل الفرضيات وأساليب التفكير والمعادلات والأيدلوجيات القديمة التي لم تعد تناسب الحقائق الجديدة بغض النظر عن فعاليتها في الماضي"[٤٦]. وبالتالي "لم تعد تفي بقراءة العالم وتدبر مشكلاته

عقلانية ديكارت أو ليبرالية فولتير أو تنويرية كانط أو تقدمية ماركس أو استراتيجيات كلاوزفيتز أو اقتصاديات كينز أو ديمقراطية تشرشل وديجول، فضلاً عن قومية القوميين وإسلامية الإسلاميين وماركسية الماركسيين.. الأمر يحتاج إلى شبكة جديدة من المفاهيم أو إلى أنظمة مختلفة من المعايير "[٤٧].

إن العولمة بوجهها الفكري الفلسفي المتمثل في «ما بعد الحداثة» تنطلق من واقع مادي يحمل الكثير من التغيرات والتحولات غير المسبوقة. واقع انتصر فيه " الزمان الفعلي الذي يجري بسرعة الضوء، على المكان التقليدي الممتد بأبعاده الثلاثة. فقد كان التاريخ يجري في أمكنة محلية تشغلها الدول والأوطان، أو في أزمنة جزئية تمثلها التراثات والثقافات الخاصة بالشعوب والأمم التي تغطي الأرض. أما الآن فإن تاريخ العالم يجري وفقاً لزمن واحد ووحيد هو زمن عالمي يوصف بأنه فوري ومباشر ومشهدي. إنه زمن عابر للحدود بين القارات والمجتمعات واللغات عبر شبكات الاتصال الفوري"[٤٨].

ففي الماضي.. مثلاً "تعارف الجميع على أن الأمم تتحد معاً إذا توافرت مساحة متصلة من الأرض تنطوي على قيمة اقتصادية، ولغة تساعد السكان الأصليين على الاتصال معاً، وثقافة وتاريخ مشترك وديانة تنبع من ماضيهم المشترك في بعض الأحيان. ولكن هذه القوى كلها تفقد محليتها المادية الآن.. مما يقلل الحاجة إلى دولة تقليدية تتواجد محلياً ومادياً. وهكذا فقد لا نتحدث أبداً ربما بعد

ذلك عن الأمة باعتبارها دولة (أو مجموعة دول) وإنما باعتبارها الشبكة التي تربط المنتمين إلى تلك الأمة في شتى أرجاء العالم"[٤٩].
لقد أصبح العالم شبكة "والشبكة تبدو كبرج بابل يثرثر بمئات الألسنة"[٥٠].

لقد حلت إذن الشبكات محل الدول.. بحيث أصبحنا "نحيا الآن بين ثلاثة عوالم. الأول هو عالم الأفكار، والثاني هو العالم الفيزيائي (المادي)، والثالث هو العالم الافتراضي الذي تخلقه تقنيات الاتصال. الأمر الذي يضعنا أمام تصنيف مغاير للعوالم تتغير معه سياسة الحقيقة وإدارة الواقع. فمنذ (أفلاطون) حتى (هيجل) كانت معرفة الحقيقة هي التطابق مع ما هو واقع.... أما الآن فإن الحاكم والناظم هو عالم الأشباح الضوئية من المنتجات الإلكترونية غير الملموسة. ومعنى ذلك أن الحقيقة هي ليست ما نعرفه، بل ما نختلقه من الوقائع أو ما نصطنعه من العوالم.... وتلك هي المفارقه: لم تعد الأشباح ظلال الحقيقة، بل ما نصنع به الحقائق"[٥١].
إذ إن "أعداداً متزايدة من المنتجات سيمكنها أن تتخذ شكل (البتات bits) بدلاً من شكل السلع المصنعة"[٥٢]، كما أن تكنولوجيا (الواقع الافتراضي) "ستخلق نوعاً جديداً من العلم يُدعى (العلم السبراني) الذي يعطينا القدرة على محاكاة أنظمة فيزيائية معقدة مثل: الثقوب السوداء والنجوم المتفجرة والمناخ وسطوح الطائرات النفاثة الأسرع من الصوت"[٥٣].

وبالتالي فإن هذا "الضغط للمكان والتسريع لإيقاع الزمن سيجعل البشرية تقترب من درجة الصفر في المسافات الزمنية؛ مما يجعل كل العالم حاضر في كل العالم في لحظة واحدة"[٥٤]... الإنترنت مثال لذلك.

وبهذا يتم الانتقال من "المدينة «الكوسموبوليتية» ذات المركز الحضاري والتجاري. وحيث النقل يتم من المركز نحو الهوامش والأطراف، إلى مدينة من نوع جديد هي المدينة «الأومنوبوليتية» مدينة الحضور والعمل من بُعد، عبر الشبكات وطرقات الإعلام السريعة التي تتيح الرؤية الفائقة بالسرعة القصوى من خلال التعامل مع المعطيات الرمزية وشبه المادية. هذه المدينة تفقد مركزيتها.. فمركزها يوجد في كل مكان بقدر ما لا يوجد في أي مكان. إنه مركز فائق تتحول معه المدن والعواصم بهندستها التقليدية إلى مجرد دوائر أو ضواح، من جراء الاتصالات الفورية العابرة للحدود بين الأوطان والقارات أو بين الهويات والثقافات"[٥٥].

ولكن على الجانب الآخر، فثمة رؤى واتجاهات ترى أن «الحداثة» كمشروع فكري فلسفي لم تَمُتْ. وأن "الحداثة هي المشروع اللامتناهي الذي مُنح أسس راسخة جديدة بعد قرون من سوء الاستعمال"[٥٦].

حيث ترى تلك الاتجاهات أن هناك "حاجة إلى منظور نقدي جديد يتعامل مع العولمة بوصفها الصيغة الأخيرة في المناقشات

القديمة حول الحداثة والرأسمالية"[٥٧]. وذلك على اعتبار أن " ما بعد الحداثة هي في واقع الأمر الإطار المعرفي الكامن للنظام العالمي الجديد. فهي رؤية تنكر المركز والمرجعية، وترفض أن تعطي للتاريخ أي معنى وللإنسان أية قيمة أو مركزية أو إطلاق. وتُسقِط كل الأيدلوجيات (عصر ما بعد الأيدلوجيات). وتنكر التاريخ (عصر نهاية التاريخ). وتنكر الإنسان (عصر ما بعد الإنسان). فعالم حسب هذه الرؤية يفتقر إلى المركز، فكل الأمور مادية، وكل الأمور متساوية، وكل الأمور نسبية، فهو عالم في حالة سيولة كاملة... وكما يقول «فريدريك جيمسون» الناقد الأمريكي الماركسي: إن روح ما بعد الحداثة تعبِّر عن روح رأسمالية عصر الشركات المتعددة القوميات. حيث قام رأس المال (هذا الشيء المجرد المتحرك الذي لا يكترث بالحدود أو الزمان أو المكان) بإلغاء كل الخصوصيات، كما ألغى الذات المتماسكة التي يتحد فيها التاريخ والعمق والذاتية، وحلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصلية للأشياء"[٥٨].

وبالتالي "إذا كانت قيم العقل والتنوير والحرية والليبرالية قد ازدهرت في بداية نشأة النظام الرأسمالي. فإن هذه المرحلة من حياة هذا النظام أخذت تُبرز فلسفة جديدة تسعى لإهدار هذه القيم، وإشاعة اللاعقلانية والرؤى الجزئية المتشظية ودحض المبادئ والأنسقة الكلية المعرفية والتاريخية والعلمية والأيدلوجية والقيمية

باسم ما بعد الحداثة، مستغلة في ذلك الطابع الشمولي المطلق الجامد المتعصب في ممارسات بعض المبادئ والأيدلوجيات والتوجهات الأدائية والميكانيكية والاستخدامات العدوانية والقمعية للعقلانية وللعلم نفسه في كثير من التجارب السياسية والاجتماعية والفكرية طوال هذا القرن"[٥٩]. "فقد انتهزت تيارات ما بعد الحداثة هذه الحقائق لصالحها - مثل عجز الفكر الماركسي عن مواكبة العصر وسقوطه ذلك السقوط المدوي - بأن عكست الوضع، وبدلاً من الحديث عن الاقتصاد أصبح الحديث كله عن الثقافة وعن الفكر، كأنها أشياء لا علاقة لها بالاقتصاد أو الاجتماع، بالعلاقات الإنتاجية أو تقسيم العمل، بالطبقات أو وضع المرأة في المجتمع. حيث حولت التيارات الفكرية للرأسمالية المعاصرة الصراعات إلى معارك مفصولة عن الإطار المادي الذي تتحرك فيه أو تتجاوزه أحياناً لتغيِّر فيه... وسَعَت لتحويل الناس إلى مستهلكين في سوق السلع العالمي، وإلى مستهلكين للأفكار والصور ولأفلام المتعة والترفيه"[٦٠].

وبالتالي يؤدي هذا - من وجهة نظر منتقدي ما بعد الحداثة - إلى سيادة حضارة جديدة "حضارة الفردانية التي تطيح بنواة المجتمع النووية (العائلة)، وتطيح بالتضامن الجماعي على قاعدة روحية ثقافية (التراحم)، وتطيح بالتواصل الحميمي بين (الأشخاص) لتحل محله (الاتصال) بين أفراد. وأساس هذا كله في الاقتصاد الاجتماعي والسياسي هو تسييد دورة (رأس المال) فوق الجميع، دورة النقود

والسلع والنقود.. مرة أخرى، ومعها تسييد «القوة»، قوة الرأسمال ودولته أو دولة الأقوى بين الجميع"[٦١]. وهذا سيؤدي إلى أنه "بدلاً من الماركسية (ماركسيزم) ظهرت السوقية (ماركتزم) نسبة إلى السوق، وهذه السوقية وهيمنتها على العالم بأسره بشماله وجنوبه وشرقه وغربه... ستؤدي إلى أن العالم سيحكمه إيقاع ثلاثي: المصنع (حيث يُنتج الإنسان) - والسوق (حيث يستبضع) - وأماكن الترفيه (حيث يفرغ ما فيه من طاقة وتوترات وعقد وأبعاد)..... وحينما يسيطر هذا الإيقاع الثلاثي على العالم بأسره يظهر النظام العالمي الجديد وأيدلوجيات نهاية التاريخ وما بعد الحداثة"[٦٢]. حيث "الحياة الدنيوية القيمة الأولى بلا منازع، فعندما لا يعود المرء يجد الخلود أمامه، تغدو الحياة نضالاً قَلِقاً ضد الزمن. وبطبيعة الحال يغدو الزمن الدنيوي لا نهائياً، غير أن هذه اللانهائية لا تقوم إلا بفتح مجال لا نهائي أمام قلق الإنسان الحديث "[٦٣].

.. ولكن على الجانب الآخر، فإن البعض يرى أن دعاوى منتقدي تيار ما بعد الحداثة لا تجد صداها - في الغالب- "إلا لدى أصحاب المشاريع الأيدلوجية الذين يقرأون العولمة قراءة نضالية مثالية طوباوية من خلال تهويمات الهوية وأطياف العدالة. وهؤلاء يدخلون على العولمة بمواقف مسبقة كما نجد لدى الكثيرين من المثقفين العرب والفرنسيين بنوع خاص ممن تفاجئهم الأحداث والتحولات. مع هذا الفريق تُقرأ الظاهرة الكونية والطفرة الحضارية بتعابير الاستتباع الحضاري والغزو الثقافي، أو

الرأسمالية الجديدة أو الهيمنة الأمريكية... أو موت الثقافة بفعل تسليع الأفكار والأجساد والأشياء"[٦٤].

وتقرر النظرة الموضوعية أن "القراءة الأيدلوجية هي قراءة وحيدة الجانب تقوم على التبسيط والاختزال، وذلك حيث تُقرأ العولمة بتعابير التمركز والهيمنة، أو السوق والسلعة، أو الاستعمار والرأسمالية، أو الاختراق والاغتصاب، أو الغزو والاكتساح"[٦٥].

وبالتالي فإن الادعاء بأن "المواكب الحديثة لا تزال بحاجة لقارعي الطبول القدامى"[٦٦]، هو ادعاء غير صحيح. وذلك لأن التعامل الأيدلوجي مع العولمة سيؤدي نتيجة الجري وراء سلبياتها المتوهمة؛ إلى عدم الالتفات إلى سلبياتها الواقعية التي تتمثل -في رأي البعض - في المخاطر التي ستترتب على غياب البُعد الروحي عن العالم الذي تدعو إليه العولمة، حيث إن "انحسار المحتوى الروحي العميق لدى الشعوب الثرية يعني أن رسالتهم الرئيسية للشعوب الفقيرة والجماهير الناشطة سياسياً حديثاً، إنما هي لإثارة الرغبة لديهم صوب المحاكاة المادية، التي هي وببساطة صعبة المنال لأغلب العالم المحروم. وعليه غدت رسالة المحاكاة المادية ومن غير قصد العامل المحفز لنوع من الحسد المحبط الذي يمكن للمتطرفين الدهماويين المناورة به، والنتيجة هي أزمة روح عالمية "[٦٧].

وبالتالي؛ يمكن لهذا المنحى أن يُذكِّر بالخطأ الفاحش الذي وقعت فيه الشيوعية عندما "اعتمدت في نجاحها على الأداء المادي تماماً

بعد أن رفضت القيم الروحية الثابتة... وهنا لم تستطع النجاة لأنها أخطأت في الحكم على طبيعة الإنسان الخلاقة، وتحديداً طبيعة الإنسان نفسه. فهي لم تستطع تسخير الإمكانية الإنسانية لأنها سحقت روح الإنسان"[٦٨]. وتناست تماماً أن "الإنسان يستمد إنسانيته من كونه كائناً منفصلاً عن الطبيعة بقوانينها الصارمة وحتمياتها النهائية. فرغم أنه يعيش داخلها خاضعاً في بعض أوجه حياته لقوانينها. إلا أنه قادر على تجاوزها وتجاوز قوانينها ليتحرك داخل البنى الإنسانية، الحضارية والتاريخية التي شيدتها يداه، والتي تشكل حيزاً إنسانياً له قوانينه الخاصة. هذا الحيز هو رقعة الحرية التي يمكن للإنسان أن يمارس فيها حرية الاختيار والسقوط والارتفاع. حرية أن يخطئ ويصيب، وأن يتحول إلى بطل أو مهرج؛ ولذا يصبح التنبؤ بسلوكه في حكم المستحيل. إن الإنسان إنسان بسبب حضاريته وتاريخيته.. وهذا ما تنكره الرؤية المتمركزة حول الطبيعة التي ترد الإنسان في جميع أبعاده إلى عالم الطبيعة / المادة، وإلى قوانينها البسيطة التي يمكن التنبؤ بها والتحكم فيها وتوظيفها"[٦٩].

ولكن؛ ربما يبدو غياب البُعد الروحي عن فلسفة ما بعد الحداثة – والذي قد يعتبره البعض أقرب أوجه نقد العولمة إلى الموضوعية – قد يدعو إلى القياس التلقائي على مصير التجربة الشيوعية والتورط في "التفكير الساذج ذي الخطوط الطولية... والإسقاطات الطولية التي تميز معظم ما يُكتب حالياً عن المستقبل؛ بما يدفع إلى القلق من أجل

أشياء مغالطة تماماً لما ينبغي القلق بشأنه، ذلك أننا لن نستطيع أن نفهم عصرنا ما لم نتقبل الفرضية المنطقية بأننا نندفع نحو مرحلة جديدة تماماً من التطور الاقتصادي والتكنولوجي -مرحلة ما فوق التصنيع- وبدون تقبلنا للمنطق الثوري فإننا لن نستطيع أن نحرر خيالنا لينطلق إلى آفاق المستقبل"[٧٠].

لذا.. فإن محاولة التمادي في تفسير الحاضر بالماضي لن تفلح لتقديم إضافة روحية إلى فكر وفلسفة ما بعد الحداثة.. بحيث يمكنها تنمية مستقبل الإنسان المادي والروحي. وحتى يمكن السير في هذا المضمار، فإنه ينبغي أن يتولد الفهم الخالص بأن "مشروع الحداثة قد فشل، وأن فلاسفة ما بعد الحداثة هم أول من أصدر شهادة الوفاة"[٧١].

وهذا يعني بكل بساطة أن "الظاهرة الكونية تتطلب تفسيراً كونياً"[٧٢]، تفسيراً مغايراً للتفسيرات السابقة المتعارف عليها، انطلاقاً من أن العصر الراهن باتصالاته الشبكية يفتح الطريق للجوانب المادية في حياة الإنسان مثلما يفتح الطريق أيضاً للجوانب الروحية، إذ إن إمكانية التخاطب والتفاعل الحر من خلال شبكات المعلومات حالياً وطريق المعلومات السريع في المستقبل، وتنامي دور منظمات المجتمع المدني، كل ذلك سيؤدي إلى عدم غياب القدرة على الدعوة والتبشير من ناحية بعض الجماعات بالقيم الروحية وأهميتها في حياة الإنسان.

وبالتالي.. فلا مجال للتطابق بين غياب الجانب الروحي في عصر «الحداثة»، وغيابه في عصر «ما بعد الحداثة»*.. فثمة اختلافات جوهرية بين العصرين. فعصر الحداثة ارتبط ببنية اتصالية مصمتة لنقل وجهة النظر الواحدة في الغالب الأعم، أما عصر ما بعد الحداثة فلديه بنية اتصالية شبكية تتقاطع فيها الآلاف والملايين من الرؤى ووجهات النظر.. وبالتالي فالأمر متروك لخيار الإنسان ..

• • • • •

* للمزيد حول مفهومي «الحداثة» و«ما بعد الحداثة» انظر كلاً من:

أ- باسم علي خريسان، العولمة والتحدي الثقافي. صفحات ٩٩ - ١١٥.

ب- ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة (بحث في أصول التغيير الثقافي). ترجمة د/ محمد شيّا.

ج- تيمونز روبيرتس وأيمي هايت، من الحداثة إلى العولمة (رؤى ووجهات نظر في قضية التطور والتغيير الاجتماعي). ترجمة سمير الشيشكلي.

هوامش الفصل الأول

▪ المبحث الأول

(١) سيار الجميل، العولمة والمستقبل (إستراتيجية تفكير). ص ١٠٢.

(٢) عبد الخالق عبد الله، "العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها"، مجلة عالم الفكر (عدد خاص بعنوان: العولمة ظاهرة العصر). ص ٥٧.

(٣) آلفين توفلر، حضارة الموجة الثالثة. ترجمة عصام الشيخ قاسم. ص ١٨.

(٤) آر. إيه. بوكانان، الآلة قوة وسلطة (التكنولوجيا والإنسان منذ القرن ١٧ حتي الوقت الحاضر). ترجمة شوقي جلال. ص ٧.

(٥) آلفين توفلر، صدمة المستقبل (المتغيرات في عالم الغد)، ترجمة محمد علي ناصف. ص ١٥.

(٦) محسن أحمد الخضيري، العولمة (مقدمة في فكر واقتصاد وإدارة عصر اللادولة). ص ٣٣.

(٧) علي حرب، حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية). ص ١٣٩.

(٨) أنطوان بطرس، المعلوماتية علي مشارف القرن الحادي والعشرين. ص ١٤٣.

(٩) تركي الحمد، الثقافة العربية في عصر العولمة. ص ٥٠.

(١٠) ميتشيو كاكو، رؤي مستقبلية (كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين). ترجمة سعد الدين خرفان. ص ١٢ – ١٣.

(١١) أنطوني جيدنز، الطريق الثالث (تجديد الديمقراطية الاجتماعية). ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف. ص ٦٥ – ٦٦.

(١٢) السيد ياسين، " في مفهوم العولمة ". في أسامة أمين الخولي (محرر)، العرب والعولمة (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية). ص ٢٥.

(١٣) Serexhe, Bernhard, Deregulation / Globalisation: The loss of Cultural Diversity? p. 1. (Available from Internet).

(١٤) آلفين توفلر، حضارة الموجة الثالثة. ترجمة عصام الشيخ قاسم. ص ٤٣٣.

(١٥) Koshy, Ninan, Political Dimensions of Globalisation. P.1. (Available from Internet).

(١٦) السيد ياسين، الزمن العربي والمستقبل العالمي. ص ٧٤.

(١٧) عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق. ص ٥٠.

▪ المبحث الثاني

(١٨) السيد الزيات، "هل تتلاشي الدولة في ظل العولمة؟ ". ص٦٣.

(١٩) عمرو محيي الدين، " تعقيب علي ورقة السيد ياسين حول: مفهوم العولمة "، في أسامة أمين الخولي (محرر)، العرب والعولمة (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية). ص ٣٥.

(٢٠) علي حرب، حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية). ص ٢٩.

(٢١) عواطف عبد الرحمن، الإعلام العربي وقضايا العولمة. ص ١٢.

(٢٢) عبد الخالق عبد الله، " مناقشات حول ورقة السيد ياسين عن: مفهوم العولمة "، في أسامة أمين الخولي (محرر)، مرجع سابق. ص ٥٢ – ٥٣.

(٢٣) صلاح سالم زرنوقة، " مخاطر البعد الثقافي خارج السيطرة والفرص صعبة ". جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٠/٩/٢٧، صفحة الحوار القومي، ملف (العرب والعولمة: تقليص المخاطر وتعظيم الفرص). ص ٣٢.

(٢٤) سيار الجميل، العولمة والمستقبل (إستراتيجية تفكير). ص ٨٥.

(٢٥) سيار الجميل، "تعقيب على ورقة السيد ياسين حول:مفهوم العولمة"، في أسامة أمين الخولي (محرر)، مرجع سابق. ص ٣٨.

(٢٦) صلاح سالم زرنوقة، مرجع سابق. ص ٣٢.

(٢٧) حسين معلوم، " التسوية في زمن العولمة: التداعيات المستقبلية لخيار العرب الاستراتيجي"، في عبد الباسط عبد المعطي (محرر)، العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي (ندوة مهداة إلى سمير أمين). ص ١١٢.

(٢٨) أسامة أمين الخولي (محرر)، مرجع سابق. ص ١١.

(٢٩) صلاح سالم زرنوقة، مرجع سابق. ص ٣٢.

(٣٠) سيار الجميل، العولمة والمستقبل (إستراتيجية تفكير). ص ٨٥-٨٦.

(٣١) أنطوني جيدنز، الطريق الثالث (تجديد الديمقراطية الاجتماعية) ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف. ص ١٨٨. (ملاحظة : ما بين القوسين إضافة من المؤلف).

(٣٢) أسامة أمين الخولي (محرر)، مرجع سابق. ص ٨.

(٣٣) عبد الخالق عبد الله، "العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها"، مجلة عالم الفكر (عدد خاص بعنوان: العولمة ظاهرة العصر). ص ٤٣.

(٣٤) سيار الجميل، "تعقيب على ورقة السيد ياسين حول:مفهوم العولمة"، في أسامة أمين الخولي (محرر)، مرجع سابق. ص ٤١.

(٣٥) محمود عبد الفضيل، "مناقشات حول ورقة إسماعيل صبري عبد الله عن: العولمة والاقتصاد والتنمية العربية.. العرب والكوكبة"، في أسامة أمين الخولي (محرر)، مرجع سابق. ص٤٠١.

(٣٦) الحبيب الجنحاني، "ظاهرة العولمة: الواقع والآفاق". ص١١ – ١٢.

■ المبحث الثالث

(٣٧) Lyotard, J., The Postmodern Condition Minneapolis, 1984

اقتبسه عبد الخالق عبد الله، في " العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها "، مجلة عالم الفكر. مرجع سابق. ص ٥٩.

(٣٨) السيد ياسين، الزمن العربي والمستقبل العالمي. ص ٢٦٥.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٢٦٥.

(٤٠) مهدي بندق، " ليت كلينتون وبوش يعودان "، مجلة تحديات ثقافية. مرجع سابق، ص ٨ – ٩.

(٤١) علي حرب، حديث النهايات (فتوحات العولمة ومآزق الهوية). ص ١١.

(٤٢) Mattelart, Armand & Mattelart, Michele, Theories of Communication (a short Introduction). Translated by susan Gruenheck Taponier & James A. Cohen. P. 143.

(٤٣) فهيمة شرف الدين، " تعقيب علي ورقة الجابري وبلقزيز حول: العولمة في الإطار العربي "، في أسامة أمين الخولي (محرر). مرجع سابق. ص ٣٢١ – ٣٢٢.

(٤٤) السيد ياسين، الزمن العربي والمستقبل العالمي. ص ٨٤.

(٤٥) المرجع السابق، ص ٨٤.

(٤٦) آلفين توفلر، حضارة الموجة الثالثة. ترجمة عصام الشيخ قاسم. ص ١٠.

(٤٧) علي حرب، مرجع سابق. ص ٥٢.

(٤٨) المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤٩) مايكل ديرتوزوس، ماذا سيحدث (كيف سيغير عالم المعلومات الجديد حياتنا). ترجمة بهاء شاهين. ص ٣٤٥ (بتصرف).

(٥٠) Wesemann, Arnd, Slaves of the Cyber - Market (An Interview with Geert Lovink). P.1. (Available from Internet).

(٥١) علي حرب، مرجع سابق. ص ١٧٣.

(٥٢) بيل جيتس، المعلوماتية بعد الإنترنت (طريق المستقبل). ترجمة عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة. ص ٣٩٧. (ملاحظة من المؤلف: البتات هي وحدات الأرقام الثنائية، والبايت الواحد يساوي ٨ بت).

(٥٣) ميتشيو كاكو، رؤى مستقبلية (كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين). ترجمة سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة. ص ٥٧. (ملاحظة من المؤلف : كلمة السبراني مشتقة من اللفظ الإنجليزي cyber).

(٥٤) زكي العائدي، الزمان العالمي. اقتبسه سيار الجميل، العولمة والمستقبل (إستراتيجية تفكير). ص ٤٣.

(٥٥) علي حرب، مرجع سابق. ص ١٦١. (ملاحظة من المؤلف : لفظ omni يتم استخدامه في بداية الكلمات الإنجليزية بمعني كل أو كلي أو شامل).

(٥٦) Mostern, Kenneth, (Modernity, Post modernity, Social Marginality). P.1. (Available from Internet).

(٥٧) Lloyd, Christopher, "Globalization: Beyond the ultra-modernist narrative to a critical realist perspective on geopolitics in the cyber age". In International Journal of urban and regional Research, . 258. (Available from Internet).

(٥٨) عبد الوهاب المسيري، " في نهاية التاريخ وصراع الحضارات"، في فخري لبيب (محرر)، صراع الحضارات أم حوار الثقافات (أوراق ومداخلات المؤتمر الدولي حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات، القاهرة ١٠ – ١٢ مارس ١٩٩٧). ص ١٠٤.

(٥٩) محمود أمين العالم، حضارة واحد وثقافات متعددة (مقاربة نظرية عامة). في فخري لبيب(محرر)، المرجع السابق، ص ٨٤.

(٦٠) شريف حتاتة، تصارعوا أو تحاوروا ولكن لا تقربوا الدولار (فكر ما بعد الحداثة). في فخري لبيب (محرر)، نفس المرجع، ص ٢٢١ – ٢٢٢.

(٦١) محمد عبد الشفيع، " هيروشيما تتذكر الهوية "، مجلة العصور الجديدة (عدد خاص: أمريكا.. روما الجديدة.. إمبريالية الفضيلة). (عدد ١٣، من سبتمبر ٢٠٠٠)، ص ١٠٢.

(٦٢) عبد الوهاب المسيري، مرجع سابق. ص ٩٤.

(٦٣) سيرج لاتوش، تغريب العالم (بحث حول دلالة ومغزي وحدود تنميط العالم). ترجمة خليل كلفت. ص ٦١.

(٦٤) علي حرب، مرجع سابق. ص ٣٠.

(٦٥) المرجع السابق، ص ٤٤.

(٦٦) هارلان كليفلاند، ميلاد عالم جديد (فرصة متاحة لقيادة عالمية). ترجمة جمال علي زهران. ص ٥٠.

(٦٧) زبغنيو بريجنسكي، الفوضي (الاضطراب العالمي عند مشارف القرن الحادي والعشرين). ترجمة مالك فاضل. ص ٥٥.

(٦٨) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٦٩) عبد الوهاب المسيري، مرجع سابق. ص ٩٠.

(٧٠) آلفين توفلر، صدمة المستقبل (المتغيرات في عالم الغد)، ترجمة محمد علي ناصف. ص ١٩٢.

(٧١) Beck, Ulrich, Beyond the nation state (globalization). p.3. (Available from Internet).

(٧٢) صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي). ترجمة طلعت الشايب. ص ١٦٠.

• • • • •